تفسير ابن كثير

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون وهي آمرة بالإخلاص فيه فقوله تعالى : { قل يا أيها الكافرون } يشمل كل كافر على وجه الأرض ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش وقيل إنهم من جهلهم دعوا رسول ا صلى ا عليه وسلّم إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة فأنزل ا هذه السورة وأمر رسوله صلى ا عليه وسلّم فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال : { لا أعبد ما تعبدون } يعني من الأصنام والأنداد { ولا أنتم عابدون ما أعبد } وهو ا وحده لا شريك له فما ههنا بمعنى من ثم قال : { ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد } أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها وإنما أعبد ا على الوجه الذي يحبه ويرضاه ولهذا قال : { ولا أنتم عابدون ما أعبد } أي لا تقتدون بأوامر ا وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم كما قال : { إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى } .

فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه فإن العابد لا بد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها إليه فالرسول صلى ا عليه وسلّم وأتباعه يعبدون ا بما شرعه ولهذا كان كلمة الإسلام لا إله إلا ا محمد رسول ا أي لا معبود إلا ا ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول صلى ا عليه وسلّم والمشركون يعبدون غير ا عبادة لم يأذن بها ا ولهذا قال لهم الرسول صلى ا عليه وسلّم : { لكم دينكم ولي دين } كما قال تعالى : { وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون } وقال : { لنا أعمالنا ولكم أعمالكم } وقال البخاري يقال : { لكم دينكم } الكفر { ولي دين } الإسلام ولم يقل ديني لأن الايات بالنون فحذف الياء كما قال : { فهو يهدين } و { يشفين } وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الان ولا أجيبكم فيما بقي من عمري ولا أنتم عابدون ما أعبد وهم الذين قال : { وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا } انتهى ما ذكره ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد كقوله : { فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا } وكقوله { لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين } وحكاه بعضهم كابن الجوزي وغيره عن ابن قتيبة فا أعلم فهذه ثلاثة أقوال (أولها) ما ذكرناه أولا (والثاني) ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد { لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد } في الماضي { ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد } في المستقبل (الثالث) إن ذلك تأكيد محض (وثم قول رابع) نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه وهو أن المراد بقوله : { لا أعبد ما تعبدون } نفي الفعل لأنها جملة فعلية { ولا أنا عابد ما

عبدتم } نفي قبوله لذلك بالكلية لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفي الفعل وكونه قابلا لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضا وهو قول حسن أيضا وا أعلم وقد استدل الإمام أبو عبد ا الشافعي وغيره بهذه الاية الكريمة { لكم دينكم ولي دين } على أن الكفر ملة واحدة فورث اليهود من النصارى وبالعكس إذ كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : [قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : لا يتوارث أهل ملتين شتى] آخر تفسير سورة قل يا أيها الكافرون